التعليـم بين الإسبـان المسلمين

● مدخل :

إن مجرد قراءة عنوان الموضوع فحسب يومىء إلى الأهمية القصوى التى يتضمنها ، والفوائد الجمة التى ينطوى عليها ، وأنه أكثر من مجرد دراسة تنضح بالفضول العلمى ، وتكشف عن الروح التى أظهرها جنسنا فى دراسة العلوم والفنون ، عبر حضارة شديدة الاختلاف عن الحضارة المسيحية . أليس من المفيد أن نعرف كيف ، ولماذا ، بلغوا هذا القدر الرفيع من حضارة متوهجة ، على حين أن النهضة العلمية والأدبية فى أوربا ذلك العصر ، كانت – بالكاد – تضىء بشعاع هزيل ؟ . اليس من الأهمية التاريخية بمكان أن نحدد ما إذا كان ذلك غريبًا عنا ، ودون أن يؤثر فينا ، أنه على النقيض ، كان المثل الحى الذى يمكن أن نقدمه ليكون دافعًا لنا ، وليثير فى أعماقنا نفس الطموح ، ونفس حب المعرفة وليحملنا أيضًا على احتذاء شىء من تقاليد هذه المدرسة ، ومناهجها ، وبعض كتبها ؟

ولو أن أيا من هذه القضايا لم يحل ، فإن واحدة منها فحسب تكفى لتبرير إصرارى ، حتى ولو لم تعد أن تكون نقطة جذابة فى مواجهة نظامنا الحالى ، وتبدو ملامحه واضحة جلية ، متوهجة الألوان ، لا تخفى على أشد الأنظار سطحية ، ولا عن الملاحظة الأقل اعتناء . ففى عصرنا كل شىء منظم ، وتابع للدولة ، إلى جانب نموذج يستخدم قاعدة لكل المؤسسات التى لها نفس النظام ، وتقوم بنفس الدراسات ، وتلتقى فيه المرايا والنقائص . أما قديمًا فتنوع واسع ، وفوضى ظاهرة كالتى نلحظها فى كل المجالات الطبيعية التى لم تستطع الصناعة الإنسانية أن تحملها على التجمع والاعتدال . ولكن لاشىء غير عادى : المياه تتدفق فى مجاريها الطبيعية ، فتصدع الأرض ، وتحطمها بأوهن شىء منها ، والخضرة لاتنبت إلا حيث الهواء والضوء ، وتربة تثريها ، ويحدث كما هو الحال فى كل مكان ، أن الجماهير تتزاحم عند السفح ، حيث الأرض رطبة لينة ، بينما قلة تلوذ وحدها بالقمم العالية ، ليس لديها من الماء إلا قطرات من المطر توافيهم به السماء من حين لآخر ، ولكنهم على النقيض يتمتعون بجو صاف نقى ، ويستطيعون أن يستمتعوا بالنظرة العميقة إلى الآفاق الممتدة العريضة .

ومن هذا التنوع نفسه تنبثق إحدى الصعوبات الكبرى التى كان علي أن أواجهها فى بحثى . فلو كان ثمة إطارات تربوية منظمة ، تجمل وتجسم ألوان التعليم المختلفة ، لاتخذنا منها مثلا ، ولأصبح العمل أكثر سهولة نسبيا ، فندرس ملامح هذه المؤسسات ونحتفظ بها فى ذواكرنا ، ولكن .. لا شيء من هذا ! . كان من الضرورى أن نمضى ، على الأقل ، من أستاذ لأستاذ ، ومن قرية إلى قرية ، ومن مدينة إلى أخرى ، ومن عصر لآخر ، وأن نمعن النظر فى كل شيء ، ثم نعمم ونحدد التقاليد التربوية من خلال التفاصيل فى أغلب الأحوال .

وبلغت هذه الصعوبة غايتها حين افتقدنا أى دليل يهدينا إلى الطريق الذى يجب أن نسلكه ، فلا العرب[1] ، ولا المستشرقون الأوربيون ، درسوا هذه المادة قاصدين ، وفى جملتها . وعلى النقيض ، كان على أن أنتصر على عدد غير قليل من المزاعم الباطلة التى ترسبت فى أعماقى بتأثير آراء بعض هؤلاء المستشرقين ، وأحكام انتهوا إليها تناقض الحقيقة ، وكان على أن أنساها لتتجه عنايتى إلى الوثائق التى وصلتنا عن تلك العصور فحسب . ولأنهم جميعًا يسبقوننى فضلا ، ويفضلوننى ثقة ، فما أنتهى إليه من نتائج ليس كافيا وحده لمواجهة ما انتهوا إليه ، إذا لم يحمل معه البراهين المتصلة بها ، ولهذا وجدتنى فى حاجة إلى أن أضفى على دراستى لونا من التفصيل والتحليل ، ولكم تمنيت أن أدع هذا لأعفى سامعى من الملل ، ولكن ، بما أنكم تعودتم على جفاف البحث العلمى فستغفرون لى هذا دون أدنى صعوبة .

وأطمأنكم على أية حال ، لقد فعلت كل ما فى ذرعى لكى لا أحمل المادة شيئًا من الترهات التقنية ، أو الاستطرادات المملة ، ونقلت بعضًا إلى الهوامش ، واستبعدت فى كثير من الأحوال بعض الأشياء الصغيرة ، التى ربما ينظر إليها بعض المتخصصين بعينى

---

(١) كان ابن خلدون الوحيد الذى عرض لموضوع التعليم فى إسبانيا فى فصول من « مقدمة تاريخه » ، وحصلت على نسخة منها فى اللحظة التى انتهيت فيها من بحثى تقريبا . وعلى أية حال فقد جاءتنى فى وقتها ، واستطعت فى ضوئها أن أصحح بعض الأشياء ، وأن أتأكد من أشيا أخرى .

● ملاحظة المؤلف تصدق فى وقتها على مشرق الإسلام ومغربه ، أما اليوم فهى تصدق على الأندلس فحسب ، أما التربية فى المشرق ، أو بعامة ، فقد خصها علماء أجلاء بدراسة شاملة ، أو وقفوها على مرحلة أو منطقة بعينها . وأشير بخاصة إلى كتاب العالم الجليل الدكتور أحمد عزت عبد الكريم عن تاريخ التعليم فى مصر الحديثة ، وجاء فى ثلاثة أجزاء .

(المترجم)

الإعجاب والرضا ، وسوف يلحظون غيابها على التأكيد ، ولكنها لا تهم عامة الناس ، ومن أجلهم رغبت فى أن يكون بحثى ميدانًا مفتوحًا للجميع .

ومهما يكن فإن هذا العمل لابد أن يشوبه النقص ، لا لقلة الكتب والمخطوطات العربية التى تيسرت لى فحسب ، وإنما – إلى جانب ذلك – لسوء التخطيط ، ورداءة العرض ، ولست أقول هذا تواضعًا أعتذر به عن قلة مهارتى ، وضعف براعتى ، لأننى حتى لو كونت فكرة دقيقة عن إمكاناتى وذكائى فسأظل أفكر على هذا النحو لسبب بسيط جدًا ، هو أننى أرى من المستحيل أن أقوم على نحو مرض بمهنتين على أن أؤديهما فى الوقت نفسه : دور العامل ودور المهندس . لم يكن فى وسعى أن أرسم الخطة سلفًا ، لأن هذا ، فيما أرى ، يتوقف على طبيعة المادة ، وكان على أن أبحث عنها ، وأن ألتقطها ، دون أن أعرف أيها أكثر مناسبة للبناء القادم ، وهو معقد التخطيط ، وكان يحدث لى أحيانًا ألا أهتم ببعض المعلومات ، ثم أجد فيما بعد أنها ضرورية ، وتجىء فى موضعها دقيقة ومناسبة كالخاتم من الإصبع ، وأحس فقط بأننى استهنت بها حين تكون فرصة علاج هذا الإهمال قد فاتت . وأخرى كان على أن أعانى من الأسف حين أرانى مضطرًا إلى طرحها ، حيث لا فائدة منها ، وهى التى كلفتنى أحيانًا جهدًا أكبر ، ومتابعة أشد ، ويحدث حين أستمتع بالتفاصيل أن أفقد الفكرة العامة ، وعندما أنظر إلى الموضوع إجمالا أن أحتقر تفصيلات مفيدة ، كلفنى الحصول عليها جهدًا كبيرًا .

ومع ذلك لم أفقد الأمل ، على الأقل فى جدة الموضوع وفائدته ، وأنه جدير منكم بأن تستمعوا إليه راضين .

ولدراسة الموضوع المعروض عليكم فى شىء من النظام سوف أسير فيه على المنهج التالى : موقف الدولة من التعليم ، ومناهجه ، ومادته ، والأساتذة ، والطلاب والدروس ، والدرجات ، والمكتبات ، ثم أنهيته ببعض الملاحظات عن المرأة المسلمة فى وطننا .

● **موقف الدولة :**

تعودنا ، كما كان عليه الحال منذ القدم فى الدول الأوربية التى تعاورت طلائع الحضارة ، أن عبء إنشاء المؤسسات التعليمية ، ورعايتها والعناية بها ، والإنفاق عليها ، يقع على عاتق الحكومات ، وليس من الغريب إذن أن يثير الغبطة والاطمئنان والرضى فى أعماقنا

أىُّ شعب ، فى أى عصر ، ومن أى جنس ، يتميز بين الشعوب الأخرى ، ويبلغ درجة عالية من التوهج العلمى والأدبى ، وأنه حققها بوسائل تشبه ما عليه مؤسساتنا المعاصرة . ومع ذلك ، فالتاريخ يكذب ذلك بطريقة قاطعة وحاسمة ، فلا اليونان ، ولا الرومان ، احتاجوا إلى هذه الوسائل ، لكى يصبحوا أساتذة العالم .

يجب أن أعزو عبارات المستشرقين التى لا تنهض على أساس ، رغم ثقتنا فيهم أمثال : البارون فون شاك[1] وديجا[2] ، وأرتين باشا[3] و ودوزى[4] وغيرهم ، إلى مثل ذلك الأمل ، وساعد عليه فى هذه الحالة بعض الأحداث الصعبة التفسير ، والمشكوك فيها ، وتجىء منعزلة عبر الأخبار الجافة التى تقدمها لنا مدونات ذلك العصر ، والتى يمكن أن نفهم منها أن البلاد الإسلامية عرفت فى القرن الثالث ، أو الرابع ، الهجرى مدارس تنفق عليها الدولة ، أو هيئات جامعية منظمة على النحو الذى كانت عليه الجامعات قديما أو فى عصرنا الحديث .

وقد دفعنا التقدير الذى تستحقه آراء هؤلاء المستشرقين الأجلاء إلى أن نبدأ بدراسة الوقائع التى أمكنها أن تلهمهم مثل هذه الأفكار . وإلى جانب ذلك ، من الأوفق لنا أن نقرر منذ اللحظة الأولى أن السياسة الرئيسية التى كانت سائدة فى ذلك العصر فى كل شىء ، ومن بينها المادة التى ندرسها ، أن الدولة ليس لها أى تدخل مباشر فى التعليم ، والأحداث التاريخية التى من هذا القبيل يمكن البرهنة على سلبيتها أحيانًا ، إذا أمكن أن نستدل على وجودها ، أو وقوعها ، فى مكان ما ، وعلى أنها فى الوقت نفسه لا يمكن

---

(١) فى كتابه : « شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية » ، ترجمة خوان بالبرا ، جـ١ ص ٦٧ الطبعة الثالثة . ● هذا ، وقد ترجمت الكتاب إلى اللغة العربية ، وصدر منه فعلا الجزء الخاص بالفن ، عن دار المعارف ، بعنوان « الفن العربى فى إسبانيا وصقلية » القاهرة ١٩٨٠ . والطبعة الثانية ١٩٨٥ ، كما صدر الجزء الأول بعنوان الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية ، عن دار المعارف ١٩٩١ ، والجزء الثانى والأخير سوف يصدر قريبا .

(٢) فى مقدمته لكتاب نفح الطيب للمقرى ، فى طبعته الأوربية ، ص ٤٥ . حيث يؤكد ، دون أساس ، بأنه كانت هناك أكاديمية رسمية فى قرطبة ، وفيها كانت تدرس الفلسفة .

(٣) التعليم فى مصر ، باللغة الفرنسية ، باريس ١٨٨٩ ، ص ٣١ ، واعتمد على رأى المستشرق الفرنسى Houdas

(٤) لابد من استثناء هذا المؤرخ العظيم ، والذى أجله كاستاذ شهير ، وقد استخدم تعبير جامعة قرطبة Universidad de cordoba عندما تحدث عن الدراسات فى هذه المدينة فى كتابه « تاريخ مسلمى إسبانيا » جـ٣ ص ١١٠ ، ولعله لم يرد أن يقول إنه كانت هناك مؤسسة جامعية ، وهو على الأقل ما يفهم من كلمة جامعة فى معناها البدائى جدًا ، لأنه يعرف أكيدا أن ابن سعيد يقول إن الإسبان المسلمين لم تكن لديهم كليات جامعية تنفق عليها الدولة . ومع ذلك فإن كلماته ترجمت حرفيا ، حتى من أدباء القاهرة أنفسهم ، وهو ما لفت إنتباهنا .

أن تحدث فى مكان آخر . ولكن ، ماذا نقول لنرفض التأكيد بأن **هشاما الأول** أنشأ المدارس ، وهى الفكرة التى دافع عنها **كوندى** Conde ، ورددها كثيرون نقلوا عنه . أو أن الأمويين أنشأوا « المجامع » التى تدرس العلوم والفنون على ما أشار إليه **ديجا** Diga ؟ . إن الجواب الوحيد الذى يمكن أن أرد به أننا لم نر أثرا أو ملمحا لما يقولون فى أى مصدر تاريخى جدير بالثقة . وعلى النقيض ، فإن كل أساتذة العصور الأولى بلغوا ما وصلوا إليه دون أن يكونوا مسجلين فى أية مؤسسة تربوية وتعليمهم كان خاصا كله ، ويتم بالتفاهم بين الأستاذ والطالب ، فى استقلال مطلق ، وبعيدًا عن السلطة العامة تماما .

نعم ، فى الحقيقة مال هشام الأول منذ بدء إمارته تقريبًا ، وصنع خلفاؤه من بعده بعامة الشىء نفسه ، إلى رجال العلم ، الذين تفقهوا فى المذهب المالكى ، واعتنقوا مذهب إمام أهل المدينة ، واختار من بين كبار الفقهاء وأتقاهم ، ومن نالوا احتراما مرموقا بين عامة الناس ، ليتولوا المناصب الدينية ، ومنصب القضاء من بينها بخاصة ، وبهذا المعنى يمكن القول إنه شجع على دراسة مبادىء المذهب المالكى والكتب التى ألفت فيه . ولكن هل لهذا أية صلة بإنشاء المدارس ، والمجامع ، أو أى شىء شبيه بها ؟ . إذا كان الأمويون منذ بدء دولتهم إلى أن تولى الحكم الثانى الخلافة قد صنعوا شيئًا يتصل بهذا الأمر، فهو لا يزيد عن الحرص على حرية التعليم فى مواجهة النظرة الضيقة والأنانية التى اتسم بها فقهاء المذهب المالكى فى إسبانيا الإسلامية ، والذين حاولوا احتكار التعليم ، وصنعوا ما فى طاقتهم لكى يحولوا دون قيام أية دراسة تختلف عن مذهبهم . وبخاصة فى مادتى الفقه والتوحيد .

وقد حقق **الحكم الثانى** بعض الأعمال فى هذا المجال ، ولو أنها موضع شك فيما يتصل بطبيعتها ، ففى أيام والده **عبد الرحمن الناصر** ، وكان وليا للعهد ثم تولى الخلافة بعده ، وفد على البلاط علماء من المشرق وبعضهم كان يتمتع بشهرة علمية عالية ، وذكر حسن مستطير ، فكان يستقبلهم ، ويدفع لهم فى سخاء رواتب عالية ، وأخذ هؤلاء العلماء ، بإشارة منه ، يلقون دروسا ومحاضرات عامة فى مسجد الزهراء الجامع ، وفى أمكنة أخرى من قرطبة ، وتعود خاصة الناس فى المدينة أن يحضروا هذه الدروس . ولكن إذا تأملنا هذا الأمر فإنه لا يكفى وحده لكى نفهم منه أن الخليفة اهتم كرئيس للدولة بتعليم رعاياه .

نحن نعرف أن ابن **عبد الرحمن الناصر** أظهر منذ كان شابا رغبة مكينة فى التعلم ، وحبًا جارفًا للعلم ، ولم تكن أمور الحكم تشغله عنه أو تصرف اهتمامه به ، لأن سفينة

الدولة كانت تشق طريقها على ما يرام ، يوجهها والده الربان الخبير الماهر ، وقد امتدت به الحياة طويلا مما أتاح لابنه أن ينفق الجانب الأكبر من حياته فى مناهج الدرس ، وأن يكون على حريته ، محاطا بكتبه ، وحيدًا بين أبهاء مكتبته الضخمة ، الغنية بروائع المؤلفات . ومع ذلك ، كان ينقصه ما هو جوهرى ، وما يستطيع أن يحصل عليه أقل رعيته ثراء بأرخص التكاليف ، فهؤلاء الذين يفيض داخلهم بالدوافع النبيلة من حب الدرس ، والرغبة فى العلم ، يجدون الطريق أمامهم مفتوحًا إلى المشرق ، مهد المعرفة وشاع أمر هذه الرحلات وذاع فى عصر يسوده السلام والازدهار ، وهناك يستطيعون أن يختلفوا إلى مدارسه ، وأن يحضروا دروس أشهر أساتذته ، وأن يترددوا على حلقاتهم ، وأن يحصلوا على الكتب ينسخونها من مؤلفيهما إملاء ، على حين أن الحكم الثانى بوصفه أميرًا ، وينتسب فى أسرة ملكية على خلاف تام مع الأسرة الحاكمة فى المشرق ، لا يستطيع أن يفارق قصره ، حتى ولا ضائعا بين غمار الطلاب فى مدينته نفسها قرطبة ، ولا أن يتردد بشخصه على المكتبات والمزادات ليشترى خير الكتب التى تعرض هناك . ومع ذلك فإن ثروته تسمح له بأن يستعيض عن هذا النقص بوسيلة أخرى ، فإذا افتقد حرية الذهاب إلى المشرق فإنه يستطيع أن يأتى بعلمائه من هناك إلى قرطبة ، مهما كلفه الأمر ، وإذا لم يكن بوسعه أن ينسخ الكتب لنفسه من مؤلفيها مباشرة فسوف يعهد إلى من يأتيه بالكتب الأصلية نفسها ، التى خطها المؤلفون بأقلامهم ، ويطلب فيها أصحابها عادة أثمانا باهظة .

لم يأت الحكم إذًا بالأساتذة حبا فى أن يتعلم الآخرون ، لأن هؤلاء لديهم ما هو أفضل وأرخص ، وإنما إرضاء لرغبته الشخصية . ولكن ما إن يصل هؤلاء العلماء إلى قرطبة ، ويصبحون فى بلاطة أغلى جوهرة ، حتى يعهد إليهم ، بالمفهوم الذى أشرنا إليه ، بأن يلقوا محاضراتهم فى مسجد الزهراء الجامع ، حيث تتردد عليهم صفوة الخاصة فى المجتمع القرطبى ، واعية تماما مقدار الاحترام الذى استقبلهم به الأمير .

وكان الحكم يجرى عليهم رواتب عالية ، ويقطعهم أراضى واسعة مقابل الاستمتاع ببقائهم إلى جواره ، والاستفادة من دروسهم فى المسجد ، والإشراف على معارضة الكتب التى بسوّدها النساخ فى مكتبته وتصحيحها ، والحوار فى مجلسه حول الأدب والفن ومسائل شتى . وبينهم من يرضى زهوه فيهدى إليه الكتب التى يؤلفها ، وإذا كانوا شعراء أو خطباء أظهروا مواهبهم فى حفلات البلاط الفخيمة ، التى تقام عند

استقبال السفارات الأجنبية ، أو تشريف كبار موظفى للدولة ، فينشدون قصائدهم ، أو يلقون خطبهم ، فى مدح الخليفة ، وذلك على نحو ما كان يصنع مع الموسيقيين والمغنين الذين كانوا يطربونه فى الحفلات ، وفى الاجتماعات العائلية والخاصة .

وفى ضوء هذه النتائج يمكن أن نعرف طبيعة العمل أيضا ، فهذه المحاضرات ، أو الأمالى ، التى يلقيها الأساتذة العلماء فى المساجد ، ويجرى عليهم البلاط من أجلها رواتب عالية ، لا تدوم أكثر من الوقت الذى يحقق رغبة الأمير ، دون أن ينتهى بها الأمر أبدا لتصبح « مجمعا علميا » منظما ودائما ، أو كليات جامعية ، أو مدارس قائمة مستمرة ، تتفق عليها الدولة .

وبعد ذلك كله ، فهذه ليست حالة فريدة فى التاريخ الإسلامى ، فقبل ذلك وبعده ، هنا فى أسبانيا الإسلامية وهناك فى المشرق ، كان مثل ذلك يحدث غالبا بين ملوك الدول صغيرة أو كبيرة ، ولكن .. يجب أن نعترف بأن صنيع **الحكم الثانى** ترك أبلغ الأثر فى أعماقنا ، بروعة هباته وضخامة أوقافه ، وتعددها من حين لآخر ، وبخاصة لشهرة عمل آخر قام به ، ولون خيالنا بظلال خطرة ، صبغنا بها أيضا بقية الأعمال التى قام بها ، وأعنى به وقفه ضياعه لتدفع منها مرتبات اثنتين وعشرين مدرسة أقامها فى قرطبة ، وهنا يمكن أن نضع يدنا أكيدا على تدخل مباشر من الدولة فى شئون التعليم ، ومن السهل أن نقع فى إغراء مد هذا الاتجاه إلى أعمال أخرى ، لأنه يحدث لنا مع الوقائع ما يحدث مع الأشياء البعيدة التى تحدد الأفق ، فمع هذه تضيع التفاصيل ، ولا نبصر من الأشكال إلا ملامح غائمة غير ثابتة فحسب ، وكذلك ننسى فى تلك الأعمال الأسباب الجوهرية لأنها ذات طبيعة شخصية وعابرة ، وتأخذ الأعمال الثانوية قيمة أكثر فى أعيننا ، بسبب التأثيرات الدائمة التى تحدثها فى أعماقنا .

فلنحاول أن ندرس الظروف التى أحاطت بهذه الواقعة[1] : لقد تولى **الحكم الثانى** الخلافة وله من العمر ثمانية وأربعون عاما ، وهى أكثر من كافية لكى تكون لديه خطط

(١) استطعت ، لحسن الحظ ، أن أفيد من فقرة مفصلة فى كتاب تاريخ يتضمن أخبارا واقية ، لمؤرخ عاصر هذه الأحداث ، وأعنى بها مخطوطة كتاب ابن حيان ، وقد حصل عليها أستاذنا الجليل السنيور فرانسيسكو كوديرة من قريب ، فى رحلته إلى شمال أفريقية ، وقام بها لحساب أكاديمية التاريخ فى مدريد ، وتوجد فى محفوظاتها ، وهذا الجزء جديد تماما ، وتعرفه أوربا للمرة الأولى . انظر : مهمة تاريخية فى الجزائر وتونس ، ص ٨٥ ، مدريد ١٨٩٢ .

تربوية ناضجة لو أراد ، يمكن أن ينفذها يوما فى حياته ، ومع ذلك بدأ حكمه دون أن يبدى اهتماما بتلك الغايات ، ومرت أربعة عشر عاما وهو على هذا الحال . وأخيرا ، فى النهاية ، وهو فى الثانية والستين من عمره ، وقد ذبلت زهرة حياته ، وبهت حبه للأدب ، أحس ذات يوم بألم خطير يهاجمه ، شخصه الأطباء بأنه داء السكتة ، وكوابيس مخيفة ، وأطياف مزعجة من الأحلام ترعبه ، تحزنه وتوهن من عزيمته ، وحبس نفسه فى داره ، ولم يعد أحد يراه غير أسرته ، ولم يكن يسمح حتى لموظفى البلاط بالدخول إلى حضرته ، وعرف الناس أن شيئا خطيرا أصاب الخليفة ، وبدأت الدعوات بأن يرد الله له صحته ويهبه عاجل الشفاء ، ومرت أربعين يوما على هذا النحو .

يمكن أن ندرك بسهولة التأثير المعنوى الذى أحدثه المرض فى روح الأمير من الموقف التالى[1] :

« وفى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول (٣٦٤هـ) منها ، طاف على الخليفة الحكم طائف ألم منعه من الظهور لأهل مملكته ، وأشفقت الرعية لما عراه وارتمضت ، وأعلنت الأدعية إلى الله تعالى فى تعجيل فرجه ، واحتجب أمير المؤمنين عن جميع أهل مملكته ، متدعا فى علته ، من يوم الأحد المؤرخ إلى أن تخفف من وصبه ، وغازلته عافيته ، وظهر لخاصته أول ظهوره ، وذلك يوم الجمعة لليلة بقيت من ربيع الآخر بعده ، فأوصل إلى نفسه الوزير الكاتب صاحب المدينة بقرطبة جعفر بن عثمان ، فكان أول من وصل إليه من وزرائه ورجال مملكته ، اختصه على نظرائه ، وقدمه على

---

(١) لم يكن هذا النص قد نشر فى حياة المؤلف ، ومخطوطاته وحيدة ، عسيرة القراءة ، وكثيرة الأخطاء ، واعتذر فى الهامش عن إيجازه بما يلى : « لكى يأخذ القارئ فكرة عن النصوص التى أوحت إلىّ بهذا التفسير التقطت بعض الأخبار التى وردت فى تاريخ المقتبس لابن حيان ، ولم أجرؤ على نشر النص العربى لأن إيراده يقتضى أن أورد جميع الأحداث التى أشار إليها هناك ، وتشير إلى بعض أحداث الدولة ، واستقبالات تجرى فى القصر ، وحتى سقوط الثلج وفيضان النهر ، وغيرها مما يحدث فى قرطبة .

والمخطوطة ، وليست بالغة الصحة فضلا عن كونها وحيدة ، من الصعب تصحيحها ومعارضتها فى جو العجلة الذى أحاط بهذه الدراسة ، ومع ذلك كان لمجمع التاريخ فضل أنه تركنى أستخدم المخطوطة على حريتى فى بيتى أو فى مكتبة الجامعة .

وبعد ذلك أورد المؤلف فقرات طويلة مقتبسة من « المقتبس » ، ولما كان الدكتور عبد الرحمن على حجى قد نشر المخطوطة وبذل فيها جهدا ، فقد رأيت بدل أن أترجم ما التقطه فى فصل الكتاب ، وأن آتى على النص المقتبس فى الهامش ، أن أنقل النص كله فى الأصل ، مستغنيا به عن هذا وذاك ، وقد أسقطت الشعر والتفاصيل المتصلة بالأسماء فحسب ، انظر المقتبس ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن حجى ، ص ٢١١ وما بعدها .

قرنائه تشريفا له ، وإظهارا لخصوصيته به ، ومحله القريب لديه ، وتوصل إليه فى هذا اليوم بعينه أكابر الفتيان الخلفاء الصقالبة ، فعم الاستبشار ، وشملت المسار ، واختلصت الأدعية ، وقضيت النذور ، وجال المبشرون على أفناء الناس يبشرونهم باستبلال خليفتهم ، ويستخلصون له أدعيتهم ، فتلاقوا أفواجا يتهانون بينهم نعمة الله عليهم بعافية إمامهم ، ويضرعون له فى تكميلها له ، وفسحة إمتاعهم به ، وإكمال المنة عليه وعليهم فيه ، وقالت الشعراء فى ذكر هذا الطائف به ، وانجلائه عنه ، فأكثرت ...

« وفى أعقاب ربيع الآخر أنفذ الخليفة إعتاق جمع كثير من عبيد له ، وإماء تنيف عدتهم على مائة رقبة . وانعقد لكثير منهم عتق بات ، ولبعضهم عتق مؤجل ، ولبعضهم تدبير ، خلص به جميعهم من الرق ، وعقدت الوثائق المحكمة العقد لجميعهم ، فكان أول من أوقع شهادته فيها الأمير أبو الوليد هشام المرشح لولاية عهده بخط يده ، وتلاه أعمامه الأخوة ، ثم الوزراء على مراتبهم ، ثم قاضى الجماعة محمد بن إسحاق ، ووليه الحكام والفقهاء أهل الشورى ، ثم العدول .

« وفى صدر جمادى الأولى تلوه **أنفذ الخليفة تحبيس حوانيت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين الذى كان قد اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقرطبة** ، وأشهد القاضى محمد بن إسحاق فى هذا التحبيس يوم الجمعة ، لسبع خلون منه ، فعظمت به المنفعة ، وجلت المنقبة ، وورث الله به القرآن أمة لم يكن آباؤهم يعرضونهم لوراثته .

« فلما كان يوم السبت لثمان خلون منه ، أنفذ الخليفة عزمه فى اسقاط سدس جميع مغرم الحشد الآزف حلول أدائه ، على جميع الرعايا بكور الأندلس ، وعهد أن يكون هذا السدس المسقط مكشوفا لجميع الرعايا ، شائعا فى الناس ، يستوى فى معرفته العالم منهم والجاهل ، فيسبق إلى كل من وجب عليه مغرم معرفة السدس الساقط منه قبل أن يأتى القابض ، ترفيها لهم واهتبالا بمصالحهم ، وأنفذ بذلك إلى الأقطار كتابا ... »[1] .

من الواضح أن إنشاء هذه المدارس ، فى مثل هذه الظروف ، لا يعود إلى عمل ملكى ، وإنما مصدره توبة شخصية ، ربما دفعه الفقهاء إليها . ولهذا وقف بها عند

(١) نص الكتاب ، وهو قطعة من الأدب الإدارى الرفيع تجده كاملا فى : ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الذى حققه الدكتور عبد الرحمن حجى ، ١٩٦٥ ، ص ٢٠٧ و٢٠٨ .

التعليم الدينى ، ولم يكن المادة الوحيدة التى تدرس فى التعليم الابتدائى فى إسبانيا الإسلامية ، ولا تمتد إلى غير الفقراء البائسين ، ولا تتجاوز مدينة قرطبة إلى غيرها ، وكانت موضع الرعاية الشخصية الدائمة من الأمراء ، لأن إقامتهم فيها .

ولقد صنع الحكم هذا كما صنعه مسلمون أتقياء آخرون كثيرون ، قبله ومن بعده ، فى أوج حياتهم أو هم على عتبة الآخرة ، وهو أمر كان يحدث كثيرا[1] .

وقد حاول **المنصور بن أبى عامر** أن يقلد الخلفاء تقليدا أعمى تقريبا ، فيما يتصل بروعة البلاط وأبهته ، وحاول أن يجذب إليه العلماء المشارقة ، وأن يسخو عليهم فى العطاء ، وأن يعيدوا فى مقره الملكى من قصر الزاهرة ما كانوا يفعلون فى قصر الزهراء[2] ، ولكنى لم أجد أى خبر عنه يومئ إلى أنه أنشأ مدارس دينية للأطفال ، على الرغم من حرصه الشديد فى أن يستفيد من أهمية الفقهاء ، وأن يكسب عن طريقهم شعبية واسعة بين عامة الناس ، وأخيرا لم يكن فى حاجة لأن يتوب امرؤ برهن على تدينه ، بأن أحرق بيديه الكتب الممنوعة التى خلفها الحكم فى مكتبته ، حتى ولو كانت قائمة ذنوبه غير قصيرة .

هكذا كان حال التعليم خلال الأعوام التى صحبت سقوط الدولة الأموية فى الأندلس ، ثم مرت أيام دول الطوائف ، والمرابطين ، والموحدين من بعدهم ، دون أن تتدخل الدولة مباشرة فى شئون التعليم ، ويقول ابن سعيد عنهم : « العالم عندهم معظّم من الخاصة والعامة ، يشار إليه ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس ، ومع ذلك فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرءون جميع العلوم فى المساجد بأجرة ، فهم يقرءون لأن يعلموا ، لا لأن يأخذوا جاريا »[3] .

---

(١) حتى الشعوب الصغيرة كان لديها مدارس تنفق عليها من الصدقات والهبات التى يوقفها الأفراد . انظر المعاهدات التى عقدها خايمة (جاقمة فى المصادر العربية القديمة) مع مسلمى اسليدة Eslida وأوشو Uxo، وربض شاطبة وغيرها ، فى كتاب : خاتير ، الظروف الاجتماعية للموريسكيين فى إسبانيا ، ص ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٩ . وفرناندیث جونثالث : الحالة الاجتماعية والسياسية للمدجنين ، وأيضا نص المعاهدة الخاصة بتسليم غرناطة ، فى الكتاب الأول ص ٢٢٧ ، وفى كتاب الثانى ص ٤٢٦ .

(٢) لمزيد من المعلومات عن مدينتى الزهراء والزاهرة يمكن الرجوع إلى كتاب : الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ، تأليف فون شاك ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، ص ٤١ – ٤٨ ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ .

(٣) عن المقرى ، جـ ١ ص ١٣٦ ، طبعة ليدن ١٨٥٥ – ١٨٦٠ .

ومع ذلك لا أقول إن الذى حدث هنا فى زمن بنى أمية ، أو فى زمن العباسيين فى المشرق لم يكن سابقة علينا أن نأخذها فى الحسبان ، حين نفسر التطور الذى لوحظ فيما بعد فى البلاد الإسلامية ، لأن الآخرين كان عليهم أن يقلدوهم فيما هو ثانوى ، وهو تعليم رعاياهم . ولكن يجب أن أصرح بأن الحاجة إليه ، فيما يبدو ، لم تكن ملحة فى إسبانيا ، ولم يشعر الناس بحاجتهم إلى أن تسهل لهم الدولة وسائل التعليم ، لأن المسلمين فقدوا الجانب الأكبر من المدن والممالك التى كانت فى حوزتهم فى إسبانيا ، قبل أن يدركهم الانحطاط الثقافى ، أما فى المشرق فقد بدأوا يشعرون بذلك سريعا ، لأن التعليم شاخ ، والحمية الأولى خمدت ، **وهناك ، فى المشرق الإسلامى ولد الطراز الجديد فى نظم التعليم ، وهو الذى قلدته بقية الممالك الإسلامية فيما بعد ، واتخذته أوربا ، فيما أرى ، مثلا لها تحتذيه ، وأقامت جامعاتها على منواله فى العصور الوسطى .**

ويقال إن **نظام الملك** ، الوزير الذائع الصيت للسلطان التركى **ألب أرسلان** ، أنشأ **فى بغداد ، بإيعاز من أبى سعيد الصوفى** أول وأشهر جامعة فيما بعد ، على امتداد العالم الإسلامى كله ، عام ٤٥٧هـ - ١٠٦٥م ، وحملت اسمه فعرفت باسم « المدرسة النظامية »[1] ، ولم يكن ينقصها شىء عند تأسيسها : كان لها بناؤها الخاص بها ، وأملاك عريضة واسعة فى الريف وفى المدينة ، ينفق من ريعها على الأساتذة والطلاب ، ويشرف عليها رئيس ، وحظيت المدرسة بالقبول والإقبال ، ولم تمض أعوام على إنشائها حتى شهدت نيسابور ، والبصرة ، ومرو ، ودمشق ، وحلب ، والقدس ، والقاهرة ، والإسكندرية ، قيام مؤسسات جديدة فى داخلها شبيهة بالمدرسة النظامية ، وأعجب بها أوائل النصارى الأوربيون الذى اشتركوا فى الحروب الصليبية .

وفى أوربا كان النورمانديون الذين استولوا على صقلية من المسلمين ، أول من أنشأ مؤسسة تعليمية فى أوربا فى مستوى الجامعات ، وأعنى بها مدرسة الطب فى سالرنو ، وكانت فى تقاليدها ، وكتبها ، وأساتذتها ، عربية فى الجانب الأكبر منها . وكان الأمراء النورمانديون أنفسهم شرقيين خلصا فى حياتهم ، وليس لهم من المسيحية إلا التعميد ، لأن حفلات بلاطهم ، وطريقة حكمهم ، وكتابات نقودهم ، ونقوش صدورهم ، وحتى

---

(١) انظر : ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » ، وأبو بكر الطرطوشى فى كتابه « سراج الملوك » ، وانظر دراستى عن « أصل المدرسة النظامية فى بغداد » وكتبته بعد هذا البحث ، ونشر فى نفس كتاب « نبذ ومقالات » .
● وقد ترجمت هذا البحث أيضا ، وهو يشغل الفصل الثالث من هذا الكتاب . (المترجم)

حريمهم ، كان يحمل الطابع الشرقى[1] ، وكانوا يحبون العلوم والفنون ، ويسعدهم أن يحيطوا أنفسهم بعلماء وشعراء من المسلمين .

ولم يكد هذا اللون من التعليم يضع أقدامه فى إيطاليا حتى سرت عدواه سريعا ، فقد أنشأ فيدريك بربروخا أول جامعة أوربية فى بولونيا ، وهو أمير من أسرة هوهنشتوفن Hohenstaufen النبيلة ، وخلف كونرادو الثانى Conrado II على العرش ، وحضر الحرب الصليبية الثانية حين كانت جامعات الشرق الإسلامى فى قمة توهجها .

وفى قابل الأيام ، بعد مئتى عام على إنشاء المدرسة النظامية فى بغداد ، ظهر هذا النظام فى باريس ، وأكسفورد ، وكمبردج ، وغيرها وسارت إسبانيا على النهج نفسه فأنشأت جامعات بالنثيا ، وسلمنقة ، وانتشر أيضا هذا الإتجاه الجديد فى التعليم ، وتميز بتدخل الدولة مشجعة ومنظمة[2] .

وفى إسبانيا المسيحية نلتقى بإحدى المتناقضات الفريدة التى تعرض فى التاريخ ، فقد تم إنشاء الكلية الإسلامية الأولى ، التى تنفق عليها الدولة ، بتأثير من الجانب الأوربى ، وليس استعارة من المشرق ولا تقليدا لمعاهده ، والأغرب من ذلك أيضا أنها تعود إلى أمير

---

(١) الإدريسى ، وصف أفريقية وإسبانيا ، طبعة دوزى ودى خويه ، المقدمة ص ١ .

(٢) تفسير نشأة الجامعات فى أوربا لم يثره فى نفسى أن هذه تلت الجامعات المشرقية فى الزمن فحسب ، أو الصلات التى أدت إليها الحروب الصليبية ، وإنما أيضا دراسة بعض الظواهر التى تصبح لغزا إذا لم نقبل هذا التفسير ، ومنها :

● السرعة التى تم بها إنشاء هذه الجامعات ، وانتشارها فى غير تدرج ، ودون أن يجىء نظام الدراسة فيها وليد تطور متمهل .

● التناقض الذى نلحظه للوهلة الأولى بين الإعفاءات والامتيازات واللوائح ، والطابع العالمى ، والديمقراطية التى تحكمها فى العادات والنظم نفسها ، وبخاصة فى بولونيا أقدمها ، وكلها تومئ إلى أنها مزيج من اتجاهين متناقضين لحضارتين مختلفتين فى جسم واحد .

● عادة منح الشهادات دون سابقة فى العصور الوسطى المسيحية ، لا فى روما ولا عند اليونان ، فى الوقت الذى كان فيه الأساتذة المسلمون يمنحون هذه الإجازات منذ ثلاثة أو أربعة قرون خلت ، بنفس الشكل وفى نفس الطريقة التى كان أساتذة الجامعات الأوربية يمنحونها فيها ، فيما بعد ، وأصبحت فى أوربا امتيازا محتكرا لما يزل قائما . وفضلا عن ذلك ، فعند اليونان وروما وبين العرب ، وهى الشعوب الوحيدة فى العصور القديمة التى يمكن أن نعرف عندها مراحل تطور الدراسات جيدا على نحو دقيق ، نجد الدولة تنشىء الكليات وتنظمها فى عصور الانحطاط الكبرى ، وليست ثمرة تقليد ، أو مهنة لخدمة الدولة بطريقة مباشرة كما فى التجنيد .

ومهما يكن فهذه الملاحظات رغم أنها ليست بذات ثقل ، لا تزال تلح علىّ ، وتقف حائلا دون أخذى بنظرية « التوالد التلقائى » التى تبدو فى أوجهها ، رغم عدم صحتها كليا ، انظر مثلا :

Gabriel Conmavré : Abelard and the Origin early history of Universities , London . 1893 Pa g. 26

حيث يقول : « لقد نشأت الجامعات من حركة عفوية للعقل الإنسانى » . وهى جملة جميلة لمن يفهمها ..

مسيحى ، ابن قديس ، وهو **الفونسو العاشر** ، الملقب بالعالم ، فهو الذى أمر بإنشاء أول كلية إسلامية فى إسبانيا ، فى مدينة **مرسية** ، وقد أمسك ذلك العاهل العاشق لكل ألوان المعرفة من أى شعب جاءت بعالم مسلم ، يدعى أبو بكر الرقوطى ، كان أعجوبة فى علمه الواسع الغزير العميق ، فهو يحيط بكل أنواع المعرفة على أيامه ، ولا يقتصر على العلوم العربية فحسب ، وإنما تجاوزها إلى العلوم التى تعرف بالقديمة ، من الحساب ، والهندسة ، والطب ، والموسيقا ، والمنطق ، وبقية فروع الفلسفة . والأعجب من ذلك أنه كان أستاذا قادرا على تعليم الطلاب من مختلف أديان شبه الجزيرة وجهاتها ، كل واحد منهم بلغته ، وقد أقام له ذلك الأمير الطيب القلب مبنى يدرس فيه مختلف فروع المعرفة الإنسانية التى يجيدها ، لطلاب من المسلمين والنصارى واليهود ، وكان **الفونسو العالم** يعامله باحترام رفيع . ويحاول اجتذابه بالمرتبات والعطايا والامتيازات ، ويراوده الأمل فى أن يعتنق المسيحية يوما ، وانتهز فرصة مواتية فقال له : لو تنصرت ، وحصلت الكمال، كان لك عندى كذا ، وكنت كذا . فأجابه بما أقنعه ، ولما خرج من عنده قال لأصحابه : أنا عمرى كله أعبد إلها واحدا ، وقد عجزت عما يجب له ، فكيف حالى لو كنت أعبد ثلاثة كما طلب الملك منى »[1] . ولابد أن ضجيج الشهرة حمل إلى غرناطة خبر هذا الأمير المسيحى الذى أنشأ مدرسة يتولى التدريس فيها عالم مسلم ، لتلاميذ من الأديان الثلاثة ، ومن ثم دعا أمير غرناطة ، [السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف ، الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه ، وحكم من ١٢٧٢ — ١٣٠٢م] العالم الرقوطى إلى عاصمة مملكته ، حتى يعلم الناس فيها من أبناء دينه ، ومع تكرار الإصرار ، والإلحاح

---

(١) ورد اسم هذا الأستاذ الشهير فى الطبعة الأوربية من نفح الطيب ، جـ٢ ص٥١٠ : **القرموطى** ، ولكن فى مخطوطة الإحاطة التى تملكها أكاديمية التاريخ فى مدريد ، جـ٢ ، الورقة ١٥٣ ، يسميه : **الرقوطى** ، وأرجح أنها القراءة الصحيحة ، وقد كرر هذا الاسم فى ترجمته للفيلسوف المرسى الشهير ابن سبعين ، الورقة ١٣٩ من الجزء نفسه .

● الحق فى جانب ريبيرا فيما يتصل بضبط الاسم ، وقد وقع إحسان عباس فى طبعته لنفح الطيب فى الخطأ نفسه ، فذكر أنه القرموطى المرسى ، محمد بن أحمد بن أبى بكر ، جـ٤ ص١٣٠ ، وهو أمر تداركه الأستاذ محمد عبد الله عنان فى تحقيقه لكتاب الإحاطة ، فذكر أنه : محمد بن أحمد الرقوطى المرسى ، ويكنى أبا بكر ، وفى مكان آخر أبا عبد الله ، وأورد له ترجمة قصيرة فى حدود الصفحة ، والقصة المذكورة فى النص أعلاه ، وأوردها المؤلف فى الهامش ، منقولة عن نفح الطيب ، وهذا نقلها بدوره عن الإحاطة دون أن يشير إليها ، ولم يورد صاحب النفح شيئا آخر يزيدنا علما بهذا العالم العبقرى الفذ ، وخارج نطاق الترجمة الموجزة التى أوردها ابن الخطيب له فى الاحاطة جـ٣ ص٦٧ ، واشارتين عابرتين فى الجزء نفسه ص١٦٠ و٢٥٧ ، لم يرد له أى ذكر آخر . ورقوطى نسبة إلى رقوطة , Ricate وهى بلدة أندلسية صغيرة ، تقع شمال غرب مرسية ، على مقربة من نهر شقورة .

فى الدعوة ، استجاب له ، وقرر أخيرا أن يتخلى عن خدمة **ألفونسو العاشر** ، وأن يذهب إلى غرناطة .

وقد تتلمذ عليه **محمد الثانى** هذا ، وكانى ثانى الأمراء فى الأسرة النصرية التى حكمت مملكة غرناطة ، وأسكنه بيتا جميلا تطوقه حديقة واسعة ، فى أجمل مكان من غرناطة [ويركب إلى باب السلطان ، عظيم التودة ، معار البغلة ، رايق البزة ، رفيق المشى] ، وكان منزله معروفا للجميع ، يغشاه الطلاب ، ويتعلمون على صاحبه ، « وكان قوى العارضة ، مضطلعا بالجدل ، وكان السلطان يجمع بينه وبين منتابى حضرته ، ممن يقدم منتحلا صناعة أو علما ، فيظهر عليهم ، لتمكنه ودالته » .

وبقيت المدرسة ما عاش الأستاذ ، وكانت الحالة الأولى ، وربما المدرسة العامة الوحيدة التى تدرس فيها علوم الأوائل عند المسلمين الإسبان ، وقد شاب إنشاءها أخطاء جوهرية منها : أنها تقليد واضح قوى للمدرسة المسيحية فى مرسية ، وأنها أنشئت من أجل شخص واحد ، وأنها كانت تدرس علوم الفلسفة ، ولم يكن المجتمع الإسلامى التقليدى ينظر إليها بعين الرضا أبدا ، وهكذا فإن وفاة الأستاذ أدت إلى إغلاق المدرسة ، وبقى تدريس الفلسفة ممنوعا ، وكذلك بقية العلوم الأخرى المتصلة بها ، وبإغلاقها لفظ اتجاه الدولة إلى التدخل المباشر فى شئون التعليم آخر أنفاسه ولما يزل نبتة طرية .

وخلال ذلك كانت رياح المشرق التى حملت إلى أوربا نظام الجامعات تحمل إلى أفريقية البذور نفسها ، ذلك أن رحالة الغرب الإسلامى الذين زاروا هذه المؤسسات فى مصر وسورية والعراق وغيرها عادوا مأخوذين بروعتها ، ووفرة دخولها ، وعدد ومستوى أساتذتها ، وكثرة الطلاب ، وهم يشجعون بالمنح للإقبال على الدراسة ، وكان ذلك مجالا لحسرتهم أيضا ، لأنهم فى مقاطعات الغرب لا يقلدون ما يصنع رجال الدولة فى المشرق[1] .

---

(١) انظر رحلة ابن جبير، وهو رحالة بلنسى شهير، طبعة رايت، ليدن١٨٢٥، الصفحات:٣٨و٤٩و٢٧٤ و٢٨٠و٢٦٨،حيث يثنى على أولئك السلاطين الذين يخصون المساجد والمعاهد بجانب من ثرواتهم، وينشئون المدارس وينفقون عليها. ففى الاسكندرية يقدمون للطلاب الغرباء المسكن والأستاذ، وفى حالات الضرورة يدفعون لهم أجر الحمام، والخدمات الطبية. وفى جامع دمشق يوزعون الكثير يوميا على الأشخاص الذين يذهبون إليه ليحفظوا القرآن، ويمكن أن نتصور أى وقت كانوا يخصونه به ليحفظوه سريعا . وكان طلاب الغرب الإسلامى الذين يذهبون ليدرسوا هناك يمثلون، مع أساتذتهم ، جماعة مستقلة ، وتجرى عليهم الأرزاق أساتذة وطلابا .

والشيء نفسه كان يحدث فى المدرسة النظامية فى بغداد .

وقد أنهى ابن جبير ، الذى ننقل عنه ، كلامه قائلا : « يرحم الله أول من أنشأها ، وكل من سار على خطاه من بعده ، وأحيا هذه السنة الطيبة » .

ولقد خرج رحالتنا الممتاز مدهوشا من جامعة دمشق بخاصة ، والتى أسسها نور الدين .

وقد عين **يعقوب** بن عبد الحق المرينى ، أبو يوسف ، إسبانيًا من كورة المرية واليا على مدينة **فاس** ، يدعى **مفضلا** ، وقد حذا هذا **الوالى حذو المشرق فى إقامة الجامعات ، فأنشأ جامعة القرويين التليدة** والشهيرة ، وأشهر جامعة فى الغرب الإسلامى على الإطلاق ، ولا تزال حتى يومنا تحتفظ بشهرتها وذيوع ذكرها ، وتفوق طلابها علميا فيما يدرسون(١) ، وفيما بعد قلد العديد من مدن الإمبراطورية المغربية جامعة القرويين فى فاس ، واتخذت منها نموذجا وقدوة(٢) .

ولابد أن القوى الإفريقية ، وكانت تمارس لونا من الحماية فى مملكة غرناطة ، جاءت معها بهذا التأثير فى أيام الوزير الذائع الشهرة **الحاجب رضوان** الذى أسس الجامعة النصرية ، وأوقف عليها أراضى مثمرة ، تكفى غلتها لكى تدفع منها مرتبات الأساتذة والمدير ، وزود المبنى بكل وسائل الراحة التى يحتاج إليها(٣) ، وفيها يدرسون القراءات والفقه وعلم الكلام والنحو والطب وغيرها ، وعرفت حياة مزدهرة إذا أخذنا فى الاعتبار شهادة لسان الدين بن الخطيب(٤) .

وقد احتفظ المسلمون الذين تخلفوا فى الجانب المسيحى من شبه الجزيرة الإسبانية بالتقاليد القديمة ، غير أنها كانت فى مرحلة انحطاط بالغة ، وبخاصة فى أرغون حيث

---

(١) انظر : ابن القاضى ، جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، ص٢٢٠ ، طبعة فاس الحجرية . وهذه الجامعة ليست إسبانية لأن مؤسسها إسبانى مسلم فحسب ، ولا تزال حتى اليوم تتمتع بشهرة عريضة فى كل شمال أفريقيا ، وإنما أيضا بتقاليدها الجامعية ، التى حملها إلى هناك علماؤنا ، وبالكتب التى كانت تدرس فيها ، وحتى اليوم ، ويكفى أن تتصفح كتاب ج . دلفين : فاس ، جامعتها ، والتعليم الإسلامى العالى ، فسوف تجد كثيرا من الأخبار عن الطلاب المسلمين الذين درسوا فيها .

(٢) الإحاطة ، جـ٣ ، الورقة ١٥٢ ، وما بعدها ، من مخطوطة الإسكوريال .

(٣) الإحاطة ، جـ١ ، الورقة ١٥٧ ، مخطوطة الإسكوريال (جـ١ ص٥١٦ ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد عبد الله عنان) .

(٤) يشك دوزى فى كتابه « ملحق للمعاجم العربية » ، مادة مدرسة ، أن هذه الكلمة تعنى فى إسبانيا الإسلامية جامعة أو كلية ، لأن بدرو القلعة يقول عنها فى معجمه أنها تعنى : « مكتبة أصول » . ومن غير شك يجب أن تفهم على أنها مدرسة فى الفقرة التى أوردها ابن الخطيب ، وأشرنا إليها من قبل ، وذكرها المقرى نقلا عنه ، لأن الإحاطة جـ٣ ، الورقة ٥٢ ، مخطوطة الإسكوريال ، يقول عند الحديث عن أستاذ بالجامعة الغرناطية :

«وقعد بالمدرسة بغرناطة يقرى الأصول والفرائض والطب » .

وتوجد إشارات أخرى ، فى أمكنة أخرى ، من المصدر نفسه ، وفضلا عن ذلك . فقبل إنشاء هذه المدرسة بكثير ، كان هذا اللفظ يستخدم فى إسبانيا الإسلامية بمفهوم مدرسة ، وليس مكتبة . أنظر : ابن بشكوال ، الصلة ، ص٤٨٠ ، ط. كوديرة ، فى ترجمته لعالم توفى قبل عام ٤٠٠ هجرية .

ظلوا يتمتعون بأكبر قدر من الحرية فيما يبدو ، أو لأن الظروف أعانتهم على تكوين نواة أقوى تضامنا ، وأشد اندماجا ، فواصلوا دراسة العلوم العربية من طب وفلسفة . وهم بعينهم المدجنون الذين أنتجوا الأدب العجمى « الخمياداaljamiada» فيما بعد ، أدب مثير ولكنه ذو أهمية محدودة ، واستطاعوا أن يتابعوا المستحدثات التى أدخلت أخيرا فى غرناطة ، وكانوا على صلة وثيقة بها ، فأنشأوا لهم جامعة فى الحى العربى من مدينة سرقسطة[1] .

باختصار انقضت كل فترة الحكم العربى فى إسبانيا دون أن يبدو أن السلطات العامة تدخلت مباشرة فى نظام التعليم ، وكل ما هناك أنهم فى أواخر أيامهم ، عندما انحصرت الدولة الإسلامية فى مملكة غرناطة المحدودة ، رأوا علاجا ، جاء فاشلا ، فى عمل **ألفونسو العالم** ، ويجب أن يكون بطبيعته مرحليا وسريع الزوال . وفيما بعد عندما أخذت الدراسات « الأكاديمية » المجيدة فى إسبانيا تغرق ، أشرق تقليد متأخر على الطريقة المشرقية ، وصلنا عن طريق جامعات شمال أفريقيا .

وفضلا عن ذلك يجب القول أن هذا التجديد الذى أخذ طريقه إلى البلاد الإسلامية ، واحتفظ حتى اليوم بكل خصائصه القديمة ، لم يمس جوهريا نظام الحرية القديم ، والذى واصل طريقه فى الوقت نفسه ، ولم تصنع الدولة معه أكثر من إنشاء مراكز دائمة تسهل وسائل تعليم الشعب ، وليس مؤسسات ممتازة تتطلب تغذيتها الغاء التعليم الخاص ضرورة ، وواصل الأساتذة منح الإجازات طبقا للعادات القديمة ، دون أن تأخذ مطلقا شكلا رسميا ، على النحو الذى سيصبح عليه الحال فى الجامعات الأوربية فيما بعد ، عندما أنشىء نظام يحتكر هذا العمل ، ويوقفه على غايات تربوية فحسب ، وفيه وحده انحصر التعليم الجامعى .

---

(١) بما أن شاهدى وحيد على وجود جامعة المدجنين هذه فى سرقسطة ، فقد رأيت من المفيد أن ألحقة ببحثى مصورا ، إنه خاتمة كتاب ، ويحمل تاريخ ومكان نسخه فى هذه المؤسسة . ونشرت بعده أيضا صورة رسالة من طالب سرقسطى موجهة إلى أستاذه فى بالجيط ، يخبره فيها بحالته فى دراسة الطب وغير ذلك . وكلتا الوثيقتين تنتميان إلى مجموعة المخطوطات العربية الثمينة التى يملكها صديقى العزيز العالم فى فن المعمار بابلو خيل ، عميد كلية الآداب والفلسفة فى جامعة سرقسطة ، وتملكها اليوم « جماعة نشر الدراسات والبحوث العلمية » .